

# أزمة الفكر العربي

بقلم الدكتور محمود يوسف زاير

مشاكلنا وازماتنا متعددة متفاوتة الشأن والخطورة، لكن اشدها خطورة، واكثرها الحاحا، وادعاهها الى الاهتمام وبذل الجهود الصادقة هي أزمة الفكر العربي المعاصر. فالفكر عقل الامة المدبر يحيي ماضيها، ويفهم حاضرها، ويخطط لمستقبلها عن وعي وادراك وشعور بالمسؤولية منبثقين من وجدانه وتفكيره.

ويمكن رد هذه الازمة الى عاملين رئيسيين: اولهما ان الفكر العربي بدأ منذ قيام الثورة المصرية يجتاز مرحلة حاسمة من تاريخه يتوقف على مصيرها لا مستقبل الامة العربية فحسب، بل ووجودها كأمة عربية؛ وثانيهما هو انه ما زال ينتهج اساليب ويعتق مفاهيم ويتأثر بأفكار لا تتفق واهدافه التي يأمل بتحقيقها ان يخرج من ازمته مرفوع الرأس وافر الكرامة، مستقل الشخصية، منفتحاً على العالم يأخذ منه ويعطيه في تسامح وحرية وثقة بالنفس.

ولتقدير خطورة المرحلة الفكرية الحاسمة التي يجتازها الفكر العربي، وابرز الاساليب والمفاهيم والأفكار مما ينبغي تعديله أو تغييره، يحسن بنا ان نعرض لنشاطه في فترة ما قبل الثورة المصرية.

بدأ هذه الفترة في السنوات الختامية من القرن الثامن عشر الميلادي حين بدأ المجتمع العربي يتلقى مؤثرات اوروبية ثقافية فكرية وتكنولوجية ومسلكية ويستجيب لها. وقد اتسمت استجاباته الاولى في الغالب بالدهشة والتقدير وحب الاقتباس لجوانب عدة من مظاهر الحضارة الغربية (1).

وكانت محاولة محمد علي باشا لادخال اصلاحات في مصر تحتدي المثال الاوروبي اول عمل منظم في البلاد العربية لاقتباس حضارة الغرب على نطاق واسع. وعلى الرغم من انهيار كثير من اصلاحاته، الا ان تجربته ظلت مثالا يحتذيه خلفاؤه، ومصدر احياء والهام للأجيال الاسلامية عامة والمصرية خاصة. وقام اسماعيل باشا بمحاولة مماثلة آتت بعض الثمار، ولكنها جرت فيما جرت على مصر الاحتلال الانجليزي سنة 1882.

ويمين لنا عهد اسماعيل والسنوات القليلة التي تلتها نقطة تحول في التفكير الاسلامي والعربي وخاصة في موقف اهله من الغربيين وحضارتهم. فقد اخذ الفكر منهم يرتد الى نفسه من ناحية، ويحاول تحديد موقفه من التيار الثقافي الغربي من ناحية اخرى.

بدأ هذا الفكر يتساءل كيف وصل به الحال من ماض حافل ببطولاته وامجاده الى حاضر يخضع فيه لسُلطان أمم كانت قبل بضعة قرون فقط لا تستحق

(1) انظر مثلا موقف المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي من اعمال الفرنسيين في مصر في محمود الشرقاوي، مصر في القرن الثامن عشر، الجزء الاول ط 2 (القاهرة، 1907) ص 178 - 189.

عنده حتى الذكر. وقد فجر هذه المأساة في نفوسهم اثنان من أئمة المسلمين وهما جمال الدين الافغاني ومحمد عبده اللذان يعتبران من اعظم مؤسسي النهضة الاسلامية والعربية الحديثة (2).

وكانت الاخطار التي تهدد العالمين العربي والاسلامي في نظر المفكرين من نوعين: الاستعمار وبخاصة الاستعمار السياسي، وخطر ذوبان الشخصية العربية والاسلامية وفقدان مثلها وقيمتها، وتقويض معتقداتها الدينية بسبب غزو الثقافة الاوروبية للمتففين واقبالهم على تقليد الغرب.

فصب اعلام الفكر جام غضبهم على من يقلد الغرب لا عن تفهم ونظر، بل عن عمى يقف به عند القشور دون اللب، والعرض دون الجوهر (3). وعملوا في الوقت ذاته على اعادة الثقة الى النفوس بالتاكيد على ان ضعف الامة الاسلامية هو مما سهل التغلب عليه، وان الدين الاسلامي غير مسؤول عن تأخر المسلمين، فما « زعمود في المسلمين من الانحطاط، والتأخر - ليس منشؤه هذه العقيدة - ولا غيرها من العقائد الاسلامية - ونسبته اليها كنسبة النقيض الى نقيضه، بل اشبه ما يكون بنسبة الحرارة الى الثلج والبرودة الى النار. » (4)

كما اكد هؤلاء الكتاب بان الاسلام لا يتعارض مع العلم الحديث.

وانبرى الكتاب والادباء الى الرد على المبشرين والمستشرقين، وخاصة عندما انتقد اللورد كرومر الاسلام كنظام اجتماعي وانتقد مركز المرأة المسلمة (5) ووصف كاتب مصري جهود المصريين في الرد على انتقادات كرومر وغيره ممن تعرضوا للاسلام بقوله:

« كم انفق فيها المصريون من الجهد والوقت حتى اوشكت قضية الدفاع عن الدين ان تكون مفضلة في مصر على قضية الدستور نفسه، وقضية الجلاء نفسه. كنت لا تفتح جريدة او كتابا مؤلفا او آخر مترجما او تصفي الى خطيب في محفل من المحافل او ناد من الاندية حتى يكون الدفاع عن الاسلام ضد اعدائه من الاوروبيين جزءا هاما من هذا الكتاب او الحديث او الخطبة. » (6)

(2) انظر مثلا من صرخاتهما التي اطلقها ابي على حال المسلمين: جمال الدين الافغاني ومحمد عبده، العروة الوثقى (دار العرب، القاهرة 1907) ص 9 وما بعدها.

(3) انظر مثلا محمد باشا الخزومي، خاطرات جمال الدين الافغاني، (بيروت 1921) ص 227 وما بعدها.

(4) المصدر السابق: ص 286.

(5) لورد كرومر، مصر الحديثة (نيويورك 1908) ج 2 ص. 134 - 135، 228 - 229.

(6) عبد اللطيف حمزة، الصحافة والادب في مصر (معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية، القاهرة، 1904 - 1905) ص 128 - 129.

وكان الميدان الذي استأثر بشطر كبير من تفكير العرب هو الميدان السياسي . وان تميز تفكيرهم فيه بشيء فهو بنزعتهم الى التحرر من ربة الاستعمار ومن الاستبداد السياسي . على اطلاقه . وكان هذا شيئاً طبيعياً بالنظر الى ما فطر عليه الانسان من نزعة الى الاستقلال بشؤونهم ، والعمل بوحى من ارادته . وكان يغذى هذا الاتجاه ايمان المسلم بأن :

« الديانة الاسلامية وضع اساسها على طلب الغلب والشوكة ، ورفض كل قانون يخالف شريعتها ، ونبت كل سلطة لا يكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ احكامها ... » (٧) وقوى النزعة الى التحرر ايضا تدفق الافكار السياسية الغربية ، وخاصة افكار الثورة الفرنسية ، على العالم العربي بطريق ترجمتها الى العربية ، او بطريق بعثت الطلاب العرب الى اوربا ، او الاحتكاك المباشر بين الاوروبيين والعرب .

وقد اتخذت نزعة التحرر هذه اتجاهات سياسية تتميز بمعالم واضحة اولها الدعوة الى الجامعة الاسلامية التي اقترنت باسم باعها الحديث جمال الدين الافغاني ، والاتجاه القومي العربي المحلي والاتجاه القومي العربي العام .

فلما وضع للعرب ان الوحدة الاسلامية في ظل العثمانيين باتت متعذرة اخذ اتباع الاتجاهين القوميين في تزايد . وكانت مصر اذ ذلك ابرز الامثلة على الاتجاه

(٧) محمد رشيد رضا ، تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ( ج ١ ، ط ١٩٣١ ) ص ٢١٤ - ٢١٥ .

القومي المحلي ، بينما كانت سوريا والعراق والجزيرة تمثل الاتجاه القومي . العربي العام الذي اخذ يدعو الى تجسد سياسي في كيان عربي مستقل موحد . وقد اوضح عبد الغني العريسي في مؤتمر باريس لسنة ١٩١٣ معالم هذا الاتجاه الاخير بقوله :

« ... ان العرب تجمعهم وحدة لغة ، ووحدة عنصر ، ووحدة تاريخ ، ووحدة عادات ووحدة طمع سياسي ، فحق العرب بعد هذا البيان ان يكون لهم ، على رأي علماء السياسة دون استثناء ، حق جماعة ، حق شعب ، حق امة ... » (٨)

واقترن الوعي القومي باتجاهيه ببقظة ثقافية انتهجت سبيلين واضحين وهما اولاً ، العمل على نشر التراث العربي الديني والثقافي ، وتمجيد مآتي العرب الحضارية وفضلها على النهضة الاوروبية في مطلع العصور الحديثة ، والتمسك باللغة العربية ونشر آدابها من شعر ونثر وتيسيره للناس . وثانياً ، الاقبال على الاقتباس من نتائج الفكر الاوروبي وخاصة الآداب الفرنسية .

وغلبت على الفكر العربي في الميدان الاجتماعي ثلاثة اتجاهات رئيسية ، متداخلة احياناً ، وهي الاتجاه المحافظ ، والاتجاه الاصلاحى التوفيقي ، والاتجاه التجديدي . وكانت هذه الاتجاهات في اساسها ردود فعل لانفتاح المجتمع العربي على الحضارة الغربية بافكارها وقيمها وعادات أهلها ومنجزاتها التكنولوجية . (٩) وكان اصحاب الاتجاه المحافظ ، في الغالب ، يرون ضرورة اتباع السلف في اخلاقهم وتقاليدهم وفكرهم ، ويحذرون على التمسك بالدين واتباع اوامره ، واجتناب نواهيهِ . وذهبوا الى انهم يستطيعون اقتباس العلوم الحديثة والتكنولوجيا الغربية دون ضرورة للاخذ بفلسفتهم المسيطرة على علومهم . فالحضارة الاوروبية في نظرهم مادية في جوهرها ، اما حضارتهم فهي حضارة روحية .

اما الاصلاحيون التوفيقيون ، الذين اجتذبوا غالبية اهل الفكر الى صفوفهم ، فقد قالوا بمزج التراثين الغربي والعربي مستندين الى تجربة العرب الاول حين تمثلوا الثقافات المحاورة التي اقتبسوها ، وخرجوا للعالم بثقافة عربية اسلامية اصيلة . واشترط هؤلاء ان تكون عملية المزج قائمة على منهج انتقائي يأخذ من التراثين ما يصلح وحاجات العصر .

ورأي الجددون ضرورة اقتباس الحضارة الاوروبية برمتها لاعتقادهم بانه لا فرق هناك بين العقل العربي والعقل الاوروبي ، وغلا بعضهم في تمجيد الحضارة الاوروبية والسخرية من تقاليد قومهم ومعتقداته . (١٠)

(٨) ساطع الحصري ، محاضرات في نشوء الفكرة القومية ( ط ١ ) بيروت ، ١٩٥٩ ) ص ٢١٦ - ٢١٧ .

(٩) راجع بصدد هذه الاتجاهات : جميل صليبا ، محاضرات في الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام واثرها في الادب الحديث ( معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٥٨ ) ص ١٢٧ - ١٥٠ ، محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ( ج ١ ، القاهرة ، ١٩٥٤ ) محمود يوسف زايد ، « العرب المحذون وازمة القيم » العلوم ، عدد اذار ١٩٦١ ، بيروت ، ص ٢ - ٣ .

(١٠) محمد حسين ، المصدر السابق ، ص ٢٤٢ - ٢٤٥ .

دار الروائع في بيروت تقدم

ص ٤٧٥١

# صلاح الدين

وريكاردوس قلب الأسد

رواية غرامية تاريخية

تدور أحداثها الشيقة في صومال  
فلطين ، ومعسكرات الجيوش  
ومبارين القتال ومنازل الملوك  
وتشكك فيها فانات اوربنا  
والفرسان والراويز والرهبان  
وتلقت فيها النايك والشيطان

الغريب المزارع  
والفناجات في ارض  
سواض صحت :

تاريخ الشرف ،  
والحروب الصليبية ،  
والشروعات العربية ،  
وساخرات الفرجة ، وكهوف  
الستاك ! ومؤامرات الملوك والامراء  
ومعجزة صلاح الدين وشجاعه ريكاردوس

انتس صرارة بعتق : جورج مردان  
عبدالله العليبي السبي ، ولترسكوت

ترتيب : شركة طبعات الشرق الأوسط - بيروت . ص ٣١٥

وهنا نقطة انطلاق المرحلة الحاضرة في نشاط الفكر العربي . بدأت هذه المرحلة مرة أخرى بارتداد المفكرين الى انفسهم واعادة النظر في كل مرافق تفكيرهم وحياتهم ، ثم بتحديد موقفهم لا من الصراع الايديولوجي فحسب ، بل ومن الدول الكبرى ايضا .

وكان العامل الحاسم في تشكيل الاتجاهات السائدة في الفكر العربي في هذه المرحلة هو الثورة المصرية وخاصة بعد ان استطاعت ان تتغلب على اهم العقبات السياسية الداخلية والخارجية التي واجهتها . فكان اول منجزاتها الحاسمة هو نفخ روح جديدة في الاتجاه القومي العربي العام وتزعمه . وقال في ذلك جمال عبد الناصر :

« ان مصر كما ترى كانت خارج الكفاح العربي . وبعد الثورة اكتشفت مصر نفسها ومكانها ، وكان عليها ان تعود الى قلب الكفاح العربي . ثم دفعتنا ظروف وقوى الى ان نصبح في مركز رئيسي ، فلم يعيد في وسعنا ان نفعل غير ما نفعل . لقد اصبحنا القاهرة قاعدة كل كفاح عربي وعاصمته من عمان الى الجزائر ... » (١١) .

ولعل من اهم نتائج الثورة المصرية هو اعادة الثقة الى نفوس العرب بعد ان كاد فشل حرب فلسطين وافلاس الحكام يعصف بها . فلأول مرة يرى العربي قوى وطنية تصنع تاريخه ، ويرى القرارات بصدده مستقبلة توضع لا في لندن وباريس وواشنطن بل في العواصم العربية . ولأول مرة يشهد العربي قيام زعيم وطني لا حزبي منشق من صميم الشعب يشتمل غيرة على كرامة الامة العربية ولا يتطرق الشك الى اخلاصه ونزاهته . ولأول مرة كذلك يشهد ثورة عسكرية تهدف الى خلق اتجاه فلسفي اجتماعي ( ايديولوجي ) بقصد تخطيط مجتمع عربي جديد له اسس فكرية ذات شخصية مستقلة .

ونظرا لهذه العوامل الجديدة امكن الان غلبة الاتجاه القومي العربي سياسيا وفكريا ، وامكن كذلك تبلور الاهداف العربية القومية الاساسية وهي : تحرير الوطن العربي كله من خطر الاستعمار ومن ربيسته اسرائيل ، وتوحيد الكيانات السياسية العربية المتفرقة ، والافادة من طاقات ابنائها وثرواتهم ، وتكوين فلسفة اجتماعية عربية تنبثق من تراث العرب وتستمد عناصرها منه ومن الثقافات العالية ، وتحقيق المساواة والعدالة الشاملتين في المجتمع العربي دون تفرق بين عناصره ، والمساهمة في التقدم الانساني العام (١٢) .

ويقضي منطق الاشياء ان تتغير او يتفق ومتطلبات تلك الاهداف العظيمة . والواقع انه تناول بعضها بالتغيير والتعديل ، لكنه ما زال يتمسك بكثير من الموافقات

— التتمة على الصفحة ٧٦ —

(١١) من جواب للرئيس جمال عبد الناصر على سؤال وجهه اليه الصحفي الهندي كازانجيا . انظر النص الكامل في نشرة لدارالسياسة في بيروت في ٢١ نيسان ، ١٩٥٩ ، بعنوان عبد الناصر يتحدث .

(١٢) فاردن هذه الاهداف بوصف الدكتور قسطنطين زريق للمعركة التي يخوضها العرب واهدافها في « التراث الحضاري » ، مجلة الابحاث ، السنة ١٣ الجزء الاول ، اذار ، سنة ١٩٦٠ . ص ٢٠ - ٢١ .

نرى من هذا ان اقلية المفكرين وقفوا حتى ما بعد الحرب العالمية الاولى موقف الدفاع عن عقائدهم الدينية وتاريخهم وتقاليدهم ، وانهم ذهبوا الى ضرورة التوفيق بين التراث العربي الاسلامي والحضارة الغربية ، وانهم اجتمعوا على ضرورة اقتباس التكنولوجيا الغربية ، وان الاتجاه القومي العربي غلب في الحقل السياسي وحقق انتصارات لا بأس بها .

بيد ان فترة ما بين الحربين العالميتين والسنين القليلة التالية حتى الثورة المصرية كانت امتحانا عسيرا للمفكر العربي . فقد استهل المفكرون هذه الفترة بغيرهم بعض التفاؤل بصدد الوصول الى حكم انفسهم بانفسهم بطريق المفاوضات مع الحكومات الغربية ، وترسيخ النظم الديمقراطية الغربية . ونشط انصار الاصلاح والتحديد نشاطا ملحوظا في جميع مجالات الفكر . الا ان تفاؤلهم لم يلبث في العقد الرابع من هذا القرن ان اخذ يتضاءل بسبب عجز الهيئات الحاكمة عن تحقيق التجربة الديمقراطية ، ونزاعات الاحزاب السياسية التي كانت في الاغلب شخصية ، وقصور المجالس النيابية عن تمثيل الشعب بجميع طوائفه . ومكنت الحضارة الاوروبية بوسائلها التكنولوجية لا من زيادة الهوة بين الاغنياء والفقراء فحسب ، بل وفي ابرازها بشكل اخذ يولد الشعور بالتدمير ، والتمرد على الاوضاع الاجتماعية . وزاد من شدة المحنة ان العالم العربي اصبح مسرحا للصراع الايديولوجي ( الفلسفي الاجتماعي ) بين الشرق والغرب ، وبدا للبعض وكان الشباب الذين استطاعوا حتى ذلك الحين الاحتفاظ بشخصياتهم الفكرية والاجتماعية العربية في وجه تدفق المؤثرات الغربية سيقعون حتما ضحية لاحدى الايديولوجيات ، وخاصة اليسارية .

واخرج الفئة المحددة من انصار الحضارة الاوروبية فشل الهيئات الحاكمة فيما بين الحربين العالميتين في تحقيق الاستقلال المنشود ، واقدام بريطانيا على التمكين للصهيونية في فلسطين . واخذ الغرب بوجه عام يفقد انتصاره ، كما اخذ نسق الفكر الاجتماعي يتحول من محافظ ومصالح ومجدد الى يمين ويمثله الاخوان المسلمون ، ووسط يمثله القوميون العرب ، ويسار يمثله الشيوعيون . وساعد اليسار على التأثير في مجرى الفكر لا فشل التجربة الديمقراطية فحسب ، بل واستدعاء اليساريين لحمل الشعارات القومية ومناصرة اصحابها .

وكانت مصيبة العرب بقيام اسرائيل اشبه بناقوس الخطر الذي يقرع آخر تحدير له ، فلم يبق اذ ذاك شك في ان تثبيت الصهيونية في قلب العالم العربي عملية تنطوي لا على تهديد دين او فكر او تقاليد فحسب ، بل وعلى تقويض الوجود العربي ذاته . ووضح كذلك ، وخاصة بعد فشل الجامعة العربية في مواجهة الخطر الصهيوني وقوى الاستعمار التي تسنده ان المتنفذين من حكام وملوك وامراء واقطاعيين لن يقروا على تحقيق الوحدة العربية ولا على تحرير جميع بلادهم من الاستعمار . وكان لاتفاق امريكا وروسيا على اقامة اسرائيل اثر كبير في توجيه السياسي العربي توجيهها واقنيا ادرك معه انه لا سبيل امامه غير الاعتماد على النفس .

## أزمة الفكر العربي

- تنمة المنشور على الصفحة ٨ -

والأساليب التي قد لا تذهب سدى فحسب ، بل وقد تقف حجر عثرة في سبيل تقدمه .

أول ما ينبغي للمفكر العربي أن يفعله هو أن يتحرر إلى حد كبير من عبوديته لكثير من الاصطلاحات والصيغ والمفاهيم الثقافية الأجنبية التي تمتد جذورها إلى أوائل القرن التاسع عشر عندما أقبل المثقفون العرب على الحضارة الغربية يعبون من مناهلها دون البحث في مدى اتصال ما يقتبسونه بواقعهم الحياتي والفكري . ويبدو أنهم لم يفقهوا بعد الدرس الذي كان من المتوقع أن يستخلصوه بعد خيبة الأمل التي أصيبوا بها إثر فشل التجربة الديمقراطية . وتراهم لا يزالون - ولو إلى حد أقل نسبيا - يقتبسون بعض الأفكار والمفاهيم دون فهم أو تحليل دقيق للقرائن العربية التي ستطبق فيها .

لقد حان لهم أن يدركوا أن المفاهيم الثقافية والمذاهب الفكرية برمتها لم تتشكل في الغالب إلا بعد تغير واضح في العلاقات الاجتماعية وظروف الحياة وطرائق التفكير . فدارس مذهب حرية التجارة في القرن التاسع عشر مثلا يدرك تمام الإدراك أنه لو لم يكن قد وضح تماما أن مصلحة انجلترا هي في اتساع ذلك المذهب بسبب تصنيعها وغلبتها البحرية وانتشار مستعمراتها ، لكان من الجائر ألا تقوم له قائمة . ويعلم دارس المذهب القومي في الاقتصاد أنه لو لم تكن مصلحة ألمانيا في اتباعه بسبب من تأخرها صناعيا حتى ذلك الوقت لما كسب أصحابه ما كسبوه من شهرة وتأثير . ويمكن القول كذلك بأنه لولا مستعمرات الأوروبيين التي اغدقت عليهم الأموال وفتحت مجالات واسعة لنشاط أنسائهم وقدرتهم ، لما تطورت الديمقراطية السياسية الغربية بالشكل الذي هي عليه الآن . وطالما أن المفاهيم والمذاهب الفكرية الأجنبية قد تشكلت في قرائن طبيعية وبشرية مختلفة ، فلا يجوز أن نأخذها مسلمة ، أو أن نسمح لها بأن تعوق تطورها . واقرب الأمثلة على ما نقصد إليه ، واشده صلة بما يجري في بلادنا هو القومية . فقد اتخذ بعض المفكرين العرب من التجربة القومية الأوروبية الحديثة مثالا على تطور القوميات في كل مكان ، بينما يقضي المنهج السليم بأن يدرس الفكر العربي منطيات الأحوال في أوروبا ومعطيات الأحوال في البلاد العربية قبل تسليمه بالتجربة الأوروبية أو إطلاق أي حكم بشأنها . فإن مثل هذه المعالجة قيمية بأن تبرز من الفروق بين القرائن الأوروبية والقرائن العربية ما يجعل تكرار التجربة الأوروبية في البلاد أمرا مستعبدا .

وينتظر من المفكر العربي كذلك أن يعيد النظر في نزعته إلى الأغرراق في تمجيد تراثه من تاريخ وحضارة وقيم على حساب الفهم التحليلي الدقيق لمسائله الكبرى . فمسألة فهم هذا التراث ودراسته الجديدة لا تقل شأنًا عن تحررنا السياسي . ذلك أن تطلعا إلى التحرر من العبودية الثقافية بخلاق فلسفة اجتماعية عربية يستلزم أن نقيم جذورها في تراثنا الروحي والثقافي ، وهو أمر لا يتم إلا بفهم ذلك التراث وتقييمه روح مخلص صادقة . والدراسة الحديثة لذلك التراث لا تستهدف التقليد أو المحاكاة ، ولا تفترض مسبقا تكرار أحداثه ، وإنما تتوخى

فهمه بطريق التعليل والتفسير والنقد على أسس علمية حديثة . وأولى الأمور بمثل هذه الدراسة هو أمر العملية الحضارية التي أدت إلى قيام النهضة العربية خلال القرون التي أعقبت انسياح المشرق في العالم ، وفهم الأسباب التي أدت فيما بعد أن توقف العقل العربي عن الإبداع واقتصراره حتى أوائل العصور الحديثة على شروح المتون والتعليق على الشروح . وليس من شك في أن دراسة هاتين الناحيتين هي من أجل الخدمات التي يسديها المفكر العربي لنفسه ولبناء أمته . هذا بالإضافة إلى أن العملية الحضارية هي جوهر الدراسات التاريخية .

وما تأكيدنا هنا على دراسة العملية الحضارية إلا لصلة الأمر بمفاهيم حضارية خاطئة قد أدت في كثير من الأحيان إلى تخبط بعض المفكرين العرب في مناهج دراساتهم لتاريخهم . وفي فهمهم للحضارات العالية التليدة والحديثة . ويأتي في رأس هذه المفاهيم فصلهم بين ما يسمونه بالحضارة المادية وبين الحضارة الروحية وتمجيدهم للثانية على حساب الأولى ، واستخفافهم البادي بكل ما يتصل بالمادة ، هذا رغم أن توفر الآلة شرط أساسي من شروط النهضة العربية الحالية التي يتطلع الجيل العربي المعاصر إلى بنائها ، ورغم أن الآلة من مرتكزات الحضارة العلمية المعاصرة .

ولسنا في حاجة إلى كبير عناء لإثبات العلاقة بين الآلة والمجتمع وتفكيره . فقيام مصنع في أي قطر لا بد وأن يوجد طائفة من العمال تلعب دورا في العلاقات الاجتماعية والأوضاع السياسية لذلك القطر ، ولا بد لها بالتالي من أن تؤثر في تفكيره الاجتماعي والسياسي . وقيام سد من السدود الكبيرة مثلا يحرق طائفة كبرى من الفلاحين من الوقوع بالكلية تحت رحمة الطبيعة ، ويساعد على انتظام حياتهم ويؤمنهم على أرزاقهم ، ويولد الثقة بالمستقبل في نفوسهم . وما لنا نتناول هذه الأمثلة بينما هناك شاهد متصل بأشخاص الكثيرين منا . فالنظارة الطبية التي نستعملها قد قدمت من الخدمات للإنسانية ما لا تدركه غالبية من اعتادوا على استعمالها . أشك أحد في أنها أطالت أعمار الطلاب والعلماء والمحاسبين ممن كان يضعف بصرهم وهم في أوائل حياتهم ؟ أفيقال بعد هذا حضارة مادية وحضارة روحية !

ودراسة العملية الحضارية دراسة علمية حديثة كفيلا بأن تفتح عيني الفكر الحديث على نقص خطير في دراسته لتاريخه وحضارته . فقد جرى أكثر المفكرين حتى الوقت الحاضر على قصر التاريخ على الحكام والملوك من العظام ومن التافهين على حد سواء ، وعلى أخبار المعارك ، ومؤامرات القصور وقصص القواد والعلماء ، كما جرى على عبادة القدماء في اعتبار العامة أو سواد الشعب غوغاء ممن ينبغي صرفهم بكلمات ، هذا على الرغم من أن هؤلاء « الغوغاء » كانوا هم مصدر رزق الدولة ، والذابين عن حدودها ، والمنافحين عن سلامتها . أما أن هؤلاء المفكرين أن يدركوا أنه إنما يعيشون على فائض إنتاج الفلاح والعامل ، وأن الاهتمام الزائد بالعامية من مستلزمات خلق الأمة الحديثة . كم كانت لكلمة رئيس الجمهورية حين أشار إلى أن وجه مصر الحقيقي هم أولئك الفلاحون من وقع في النفس وإثارة لوجدان العربي الإنسان . فإذا لم يستخلص المفكرون من هذه الكلمة جميع ما تتضمنه من معان عميقة فإن حضارتهم التي هم بصدد بنائها ستظل كما كانت منذ قرون طويلة حضارة مدينية (أي قائمة على المدن فحسب) .

بالامة العربية وولاء لها . فآفكر مقالانا وابحائنا يتوخى اثبات حقيفة القومية العربية ، واقلمها هي التي تقدم دراسات علمية للشعوب العربية ومشاكلها وتدرس طرق تقوية العلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية بينها كخطوة في سبيل تحقيق الوحدة العربية . ولا بد من الإشارة هنا الى ان مثل هذه الدراسات لا تستمد من الكتب وحدها . فلن يتأتى لكائن من كان ان يقدم دراسة علمية لشعب مراكش وهو في بيروت او عمان او دمشق . فمثل هذه الدراسة تتطلب من صاحبها الرحلة والاقامة في مراكش والاتصال بمختلف هيئات شعبها وقطاعاته الاجتماعية ، وبهذه المناسبة لا بد لنا ان نطالب الهيئات المسؤولة باتاحة فرص التفرغ والرحلة والاقامة في الاقطار العربية لاهل الاختصاص ممن يستطيعون تعريفنا على وطننا تعريفا قائما على المشاهدة والاحتكاك المباشر لا تعريفا بالواسطة . وكم تكون خدمة الجامعة العربية جلية لو انها شملت هذه الدراسات برعايتها فوجهت عددا من اهل الاختصاص الى كل بلد عربي ، على غرار ما تفعله المؤسسات العلمية العالمية . حاولت في هذه الصفحات ان ابرز ازمة المفكر العربي بردها الى عاملين وهما طبيعة المرحلة التي يجتازها وبعض الاساليب والمفاهيم التي ينبغي له اعادة النظر فيها . وان كنت قصرتها على المفكر العربي ممن يؤمنون بالقومية العربية فذلك ، كما قال الدكتور قسطنطين زريق ، لامباني بان الاتجاه القومي العربي هو السائد وان الامة العربية في طريقها الى تحقيق اهم اهدافها .

محمود يوسف زايد

## الوطن حبا

الديوان الاخير للشاعرة المبدعة

فدوى طوقان

صدر اخيرا عن

دار الآداب

الثلث ٣٠٠ ق.ل

والمفكر العربي مدعو ايضا الى ان يطرح اسلوبا يستند اغراضه ، ولم يعد له ما اسبغ عليه من اهمية ، الا وهو الرد على المبشرين والمستشرقين الذين يتعرضون للدين الاسلامي بما لا يجب آهه . اجل لقد مر زمن كان هذا الاسلوب ضرورة لجا اليها المفكر وتمسك بها ريثما يسترد انعاسه ويستجمع جهوده ، ويستعيد ثقته بنفسه . اما وقد فعل اكثر هذا فعليه ان يوجه طاقاته التي كان يعرفها في الردود والدفاع عن عقائده ، في فهم دينه ، والتعمق في دراسته ، ونشر تراثه ، سيما وان الاسلام عزيز قوي برسائله وبالمسلمين ، وانه ما زال ، ينتشر في اتر من بعمه من بقاع العالم .

ومن اهم النقاط التي ينبغي ان نثيرها هنا بالنسبة للاساليب والمفاهيم التي ينبغي للمفكر العربي ان يعيد النظر فيها هي مفهومه التام لاهدافه وما يتفرع عنها من مسائل كليه وجزئية . فتعيين الاهداف دون تحليل فكري فلسفي حديث لها قد يؤدي الى فوضى وتخطيط في المفاهيم ويضيع كثيرا من الجهود التي نحن في اشد الحاجة لها . وسافترض هنا على التنويه بهدف واحد من اهدافنا ومجهودات المفكرين في تحليله وجلائه وتحقيقه ، وهو تطلعنا الى وضع فلسفة اجتماعية او ايدولوجية ، عربية في جذورها الروحية الثقافية ، وحديثة في شمولها واسبابيتها .

ان من يتصفح بعض الفيض الذي تخرج علينا به المطابع العربية لا بد وان يشعر بالاسف حين يكتشف ان كثيرين ممن تصدوا لبحث هذا الموضوع او ممن عنوانوا كتبهم ومقالاتهم بعنوان الايدولوجية او الفلسفة الاجتماعية لم يكلفوا انفسهم عناء تحليل العنوان نفسه ، وفهم نقطة البداية كان الموضوع انشاء او خطبة حماسية . جادت به قرائحهم كان الموضوع انشاء او خطبة حماسية . وليس من قصدنا هنا ان نشبط همهم ، او ان ننال من تفكيرهم وانما قصدنا ان نذكرهم بمسؤولياتهم الجسيمة تلقاء انفسهم كمفكرين ، وتلقاء الجيل المعاصر والاجيال التالية . فلو رددوا مفهوم الفلسفة الاجتماعية الى مقوماته الرئيسية من نظرية في الانسان ، ومفهوم للحضارة ، وتفسير للتاريخ ، ونظرية في المجتمع ، لترددوا في الكتابة في الموضوع واعتبروا المهمة مهمة سنوات عديدة من الجهد والكد المتواصلين . ذلك ان اية معالجة جديفة لهذا الموضوع لا بد وان تقوم على تقييم صحيح للتراث العربي من جميع نواحيه ، وعلى فهم موضوعي عميق للتراث الانساني العام ، وهما امران لم يتوفرنا بعد للمفكر العربي .

وعلى المفكر العربي ان يدرك ان ما نسميه ايدولوجية او فلسفة اجتماعية انما هو اتجاه نحو تلك الفلسفة ، وان وضعها يتطلب منا تحقيق شرط لا بد من توفره وهو اتاحة الفرص لطلابنا وخاصة طلاب الجامعات لدراسة تاريخنا وتراثنا ودراسة الحضارات الكبرى التليدة والحضارة العالية المعاصرة دراسة علميا دقيقة . فالمفكر السعيد الذي سيكون له في النهاية شرف وضع فلسفتنا الاجتماعية العربية سيكون قد تمثل عناصر الثقافة العربية وبنى عليها صرحا فكريا فلسفيا انسانيا عالميا هو خير عدة لنا وللاجيال القادمة .

وبعض ما يصدق على موضوع الفلسفة الاجتماعية التي نهدف الى وضعها يصدق على تفكيرنا القومي . فمعظم هذا التفكير ينصب على الجانب النظري من القومية العربية لا الجانب الواقعي الذي هو اساس كل ايمان